

التشيع في الجزائر بين الظاهرة الطبيعية وصناعة الأقلية

أشار التقرير الأمريكي الذي صدر مؤخرًا حول حرية الممارسة الدينية في الجزائر، من طرف خفي إلى شيعة الجزائر، من خلال تمييزه لدور الحكومة الجزائرية في مكافحة السلفية المتطرفة، كما أشاد بدور الحكومة في رفع الحظر المضروب على دخول الكتب غير الإسلامية (الأنجيل)، واستعدادها لإعادة فتح الكنس اليهودية.

ويطرح موضوع التشيع والتشيع في الجزائر بقوة خلال الأشهر المنصرمة، وقد بدأت القضية تأخذ أبعادًا خارجية، خصوصًا بعد تصريح مقتدى الصدر المثير للجدل في

شهر نوفمبر الماضي، الذي دعا فيه شيعة الجزائر أو "أبناء المذهب الإمامي" كما أسماهم، إلى "عدم الخوف من التلثة الضالة"، وكان وزير الشؤون الدينية الجزائري قد حذر من خطر التشيع

والتكفير سنة ٢٠١٤، معلنا بشكل صريح بأن كلا من تيارات التشيع والتكفير تقف خلفها جهات استخباراتية سياسية، ووسط تصاعد حملة لنشطاء جزائريين سميت بـ "الحملة الجزائرية لطرد الملحق الثقافي الإيراني" لدى سفارة إيران بالجزائر، والتي بلغ عدد المتابعين لها على الفيس بوك لغاية كتابة هذه السطور ١٢,١٤٠ متابع، على خلفية اتهامه بالإشراف على ملف تشيع جزائريين، عاد وزير الشؤون الدينية الجزائري للتصريح قبل أيام، بأن التحقيقات المعمقة التي أجرتها دائرته الوزارية بالتنسيق مع الأجهزة الأمنية، تنفي التهم عن أي دور تشيعي تقوم به السفارة الإيرانية في الجزائر.

غير أن مثل هذه التصريحات لم تقنع أصحاب الحملة الذين تابعوا بشكل دقيق على مدار أشهر تحركات الملحق الثقافي أمير موسوي، عبر العديد من ولايات الوطن وأخذوا للصور بها، وكيف أنه كان يحضر بعض الملتقيات المتعلقة بالتصوف دون أن توجه له دعوة ويأخذ الصور بها مصطحبا بعض المعممين الذين كانوا يرافقونه، وحسب المدعو محمد الوالي وهو مدون جزائري يحظى بمتابعة كبيرة من طرف مرتادي وسائل التواصل الاجتماعي في الجزائر، فإن جهات أمنية جزائرية خاصة قامت بتقييد حركة أمير موسوي، وعدم السماح له بمغادرة مقر السفارة، وينقل محمد الوالي عن هذه الجهات بأنها أقدمت على تفكيك العديد من الشبكات السرية التي كان يشرف عليها الملحق الثقافي عبر مختلف ولايات الوطن، غير أن نفس المدون ينقل من مصادره الخاصة بأن الحظر رفع عنه بعد تدخل أمريكي - فرنسي، وهو موقف مغاير تماما لما أقدمت عليه السلطات الجزائرية مطلع التسعينيات، عندما أبعدت الملحق الثقافي الإيراني رفقة الملحق العسكري وخمسة دبلوماسيين آخرين، بعد تبني طهران موقفا مساندا للفيس (حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ المحظور)، وأعقب هذا التقليل للتمثيل الدبلوماسي بين البلدين قطع تام للعلاقات الدبلوماسية سنة ١٩٩٣، والتي لم يعد استئنافها إلا سنة ٢٠٠٠، وفي هذا السياق من اللافت للانتباه ما صرح به الأسبوع الماضي سيد أحمد غزالي، رئيس الحكومة الأسبق، حيث قال: "إن الجزائر والمغرب العربي كله ليس بمنأى عن مخاطر نظام الملاي الاستبدادي باسم الدين، وبالنسبة للجزائر كنت رئيس الحكومة في عهد المرحوم الرئيس محمد بوضياف، وهو من اتخذ القرار بقطع العلاقات مع إيران"

وأضاف أن: " الجزائر ارتكبت غلطة جسيمة لما أعادت العلاقات مع إيران بعد سبع سنوات من القطيعة، والمرحوم بوضياف كان قراره صحيحا بقطع العلاقات مع طهران ".

المراحل التي مر بها تشييع الجزائريين:

يقسم الباحثون و المهتمون بموضوع التشييع في الجزائر، ظاهرة التشييع إلى ٠٤ مراحل أساسية، :

المرحلة الأولى: هي المرحلة الممتدة بين ١٩٦٢ (تاريخ استقلال الجزائر) و سنة ١٩٧٩ (العام الذي انتصرت فيه الثورة الإسلامية في إيران) و قد تميزت هذه المرحلة باستقدام أساتذة من المشرق العربي للتدريس في الجزائر، حيث خلفت حرب التحرير الجزائرية و الفترة المتطاولة التي قضاها الاستعمار الفرنسي في الجزائر (١٣٠ سنة) آثارا مدمرة على المجتمع الجزائري، الذي تفشت فيه الأمية و الجهل و الفقر، و قد حمل الأساتذة القادمون من العراق و سوريا و لبنان على وجه الخصوص، بذور التشييع، و مما ساعدهم على ذلك وجود مجتمع جزائري لا تزال مقومات الهوية عنده تلتقط أنفاسها بعد محرقة الاستعمار، حيث لم يكن أغلب الجزائريين يميزون آنذاك بين مختلف التيارات و المذاهب الإسلامية، و قد مثلت هذه المرحلة، مرحلة السرعة الابتدائية، إذ لم يكن للتشييع فيها رافد خارجي يدعمه يمكن أن يشكل نموذجا ملهما للاستقطاب.

المرحلة الثانية: هي المرحلة الممتدة بين عام ١٩٧٩ (تاريخ انتصار الثورة الإسلامية في إيران) و عام ٢٠٠٠ (مرحلة الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان)، و قد تميزت بصعود مدو لنموذج الثورة الإسلامية في إيران، و ما صاحبه من شعارات و تحركات لتصدير الثورة، و الدعاية لاستنساخ النموذج سنيا من طرف حركات الإسلام السياسي، التي كانت ترتبط أغلب قياداتها بمعرفة شخصية بالخميني و كانت تحتفي كثيرا بأنصاره، و قد غلب على التشييع في الجزائر خلال هذه الفترة، طابع التشييع السياسي، و هو تشييع عاطفي غير مؤسس على قناعات فكرية و عقدية، وإنما ينتشر من خلال بريق النموذج و سطوة التجربة الإيرانية، و لا يزال المهتمون بظاهرة التشييع في الجزائر يعانون من صعوبة جمة في تحديد نسبة أو عدد الذين تشييعوا من الجزائريين في هذه المرحلة مقارنة بالعدد الإجمالي المتداول حاليا عن عدد الشيعة في الجزائر ممن تشييعوا فيما بعد، و ذلك نظرا للستار الكثيف من السرية الذي يلف المتشييعون أنفسهم به، و لكن يمكن الحكم مجملا أن الذين تشييعوا في هذه المرحلة، تحول تشييعهم تدريجيا من السياسي إلى العقدي (و هو تطور طبيعي منطقي و تاريخيا)، كما أنهم أسسوا أسرا و أصبح أبنائهم اليوم شبابا أسسوا أسرا بدورهم و الكل يعتنقون المذهب الشيعي.

المرحلة الثالثة: و هي مرحلة الذروة في صعود المد الشيعي، فقد أضيف إلى عامل انتصار الثورة الإيرانية، عامل آخر يمثل وترا حساسا في وجدان الشعب الجزائري، نظرا لارتباطه بالقضية الفلسطينية، حيث سعدت عملية الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان من أسهم حزب الله لدى عموم الجزائريين، و زاد من هذا الصعود النتيجة التي أسفرت عنها حرب ٢٠٠٦ بين الحزب و إسرائيل، و قد شهدت هذه المرحلة نشاطا محمومًا لتشيع الجزائريين استثمارا في الحديثين البارزين، و يذكر أنور مالك (و هو ناشط حقوقي جزائري مهتم بموضوع التشييع) بأن هناك فرق بين تشييع فرد بوصفه حرية اعتقاد، و التشييع كمشروع استخباري لصالح الولي الفقيه، كما يؤكد بأن تشييع الجزائريين تصاعد مع ما تم تسويقه على أنه انتصار لحزب الله سنة ٢٠٠٦، و أن عدد المتشييعين – حسب تقارير مصالح الأمن – وصل إلى خمسة آلاف.

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة انطلاق ما سمي بثورات الربيع العربي، وهي مرحلة الصدمة و بداية الانحسار بعد التدخلات الإيرانية الدامية في اليمن و سوريا.
موضوع خطير ... وأدبيات شحيحة:

فيما يتعلق بالكتب والأبحاث المنشورة التي تغطي موضوع التشيع في الجزائر، فإنها تظل قليلة، فعلى مستوى الكتب لا يجد القارئ سوى كتاب أنور مالك المعنون بـ أسرار الشيعة والإرهاب في الجزائر الصادر عن الشروق سنة ٢٠١١، وبعض الأبحاث والمقالات، أبرزها دراسة للدكتور عبد الحفيظ غرس الله بعنوان الشيعة في الجزائر من التحول السياسي إلى ولادة طائفة دينية، ومجموعة من المقالات للأستاذ يحيى بوزيدي.

و عن أسباب تشيع الجزائريين يجمل أنور مالك الأسباب في العلاقات الشخصية في الداخل و الخارج و المجالات و الكتب التي توزع بطرق سرية و الإنترنت والدعم الإيراني المادي والمعنوي للراغبين في الالتحاق بالمعاهد و الحوزات العلمية في النجف و قم و خاصة لدى الشباب العاطل عن العمل. وتساهل الحركات الإسلامية معهم وتركيتها للشيعة، والدعم الرسمي الذي شجع ظاهرة التصوف وتدعيم الزوايا و هذا الذي شكل أرضية خصبة للقبوريين والباطنيين و نشر فكر الأضرحة والأولياء والأوصياء و هي ظاهرة لديها قواسم مشتركة مع عقيدة الشيعة في تمجيد القبور والموتى وتقديسهم، و زواج جزائريات من شيعة لبنانيين وسوريين وخليجيين و غياب مرجعيات دينية رسمية جزائرية.

ما هو حجم الظاهرة ... ومن هم رموز التشيع في الجزائر؟

على قلة الأرقام المتواترة حول عدد الشيعة في الجزائر مقارنة بالعدد الإجمالي للسكان الذي يقارب الأربعين مليون نسمة، فإن باحثاً جزائرياً مهتماً بالظاهرة كنور الدين ختال، يقول بأن مكنم الخطر في التشيع الجزائري أنه تشيع نوعي و ليس كمي، و رغم أن هذه المسألة هي مسألة بديهية إذ أن كل الأفكار المذهبية الوافدة تتبناها عادة النخب ثم تنتشر مجتمعياً شيئاً فشيئاً، إلا أن التحدي الكبير و الاستثناء الذي يطرحه موضوع التشيع يكمن في أن خلفه دولة إقليمية قوية، و يذكر الكاتب أنور مالك أن ٥٥ ٪ من المتشيعين أنهوا دراساتهم الجامعية، و أن أغلبهم يعمل في قطاع التربية و التعليم، كما أن متوسط أعمارهم يتراوح بين الثلاثين و الأربعين سنة، و أن نسبة ٤٠ ٪ منهم متزوجون و لهم على الأقل طفل واحد، و هذه تعتبر مؤشرات مهمة على مستقبل الظاهرة.

ويختلف التشيع في الجزائر عن نظيره في دولتين مجاورتين هما المغرب و تونس، حيث أصبح التشيع في الأولى تشيعاً شعبياً و للشيعة جمعياتهم و مراكزهم و هم يعملون بشكل علني، أما في الثانية فقد نجح التشيع في أن يكون له مرجعيته الدينية العالمية مثل التيجاني السماوي، أما في الجزائر فلا يزال التشيع فيها نخبياً و غير معلن و لم ينجح لحد الساعة في أن يكون مرجعيات ذات مستوى عالمي، و لا يزال عدد النخب الجزائرية التي تشيعت و تعلن ذلك أمام وسائل الإعلام، قليلاً جداً، و يمكن هنا أن نذكر اسم الكاتب صادق سلايمية، و المفكر رشيد بن عيسى، كأبرز جزائريين متشيعين.

معاقلة الشيعة في الجزائر وأين يجتمعون؟

يؤكد الباحث في شؤون التشيع في الجزائر نور الدين ختال أن الشيعة باتوا ينتشرون في العديد من المدن الجزائرية، موضحاً أن لهم بعض الأماكن الخاصة التي يجتمعون فيها باستمرار، من بينها مطاعم فاخرة في أحياء راقية بالعاصمة الجزائرية، كما تعتبر ولايات مثل تبسة، باتنة، سطيف، عنابة، برج بوعريبيج، البويرة، وهران، مستغانم، تيارت، معسكر، بلعباس مراكز حيوية لنشاطهم، في حين توصف منطقة عين تموشنت بأنها أبرز معقل للتشيع على المستوى الوطني.

انعكاسات ملف التشيع في الجزائر على الملفات الاقتصادية والسياسية للجزائر

ينبه المحلل السياسي الجزائري رضا بودراع إلى مسألة يراها من وجهة نظره غاية في الخطورة، و هي تسليم صفقة الأمن السيبراني في الجزائر إلى إيران، حيث أصبحت قواعد بيانات الجزائريين في متناول الحرس الثوري والمخابرات الإيرانية. كما أن أخطر ما ينهيه له بعض المتابعين لتطورات الموضوع على الساحة الجزائرية، هو لغز التوافق و التداخل بين المصالح الفرنسية و الإيرانية في تشييع الجزائريين، فكما أشرنا أعلاه أن السفارة الفرنسية كان لها دور في فك قيود الحركة المفروضة على الملحق الثقافي لدى السفارة الإيرانية، فإن هناك جهود حثيثة يرصدها بعض المتابعين تتعلق بتكثيف الجهود لتشيع سكان منطقة القبائل، و هو مسعى يستهدف فيما يستهدفه إعادة توجيه للحركة البربرية المتطرفة (المعروفة بولائها لفرنسا) في نسختها العلمانية، لتصبح حركة بربرية متدينة و لكن بنسخة شيعية متناقضة مع التوجه العام للشعب الجزائري، و يشار إلى أن أبرز متشيع جزائري هو المفكر رشيد بن عيسى و هو خريج جامعات فرنسية و ينحدر من منطقة القبائل. هذا السيناريو الجزائري يحاكي تماما ما حدث في تركيا، و كشفه الانقلاب الفاشل الذي عرفته البلاد مؤخرا، حيث عملت الولايات المتحدة الأمريكية على مدار سنوات على استبدال عنصرها الفعال المتمثل في التيار الكمالي و الحركات العلمانية المتطرفة، بعد أن استنفدت دورها، بتيار ديني يضمن استمرار الولاء لنفس المشغلين، و تمثل هذا التيار في ما يعرف بحركة الخدمة، و يمكن في هذا السياق العودة إلى تقرير مؤسسة راند الأمريكية لسنة ٢٠٠٧، و هو التقرير الذي ضم تفاصيل مثيرة للجدل حول صناعة البدائل الإسلامية لاستمرار الهيمنة.

أ. عمر روابحي